

مسافر يهرب من الحجاج

كان ابن نمير الثقفي أحد الشعراء المشهورين، يشبب بزینب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج، وكان الحجاج يتهذهه، ويقول: لولا أن يقول قاتل، لقطعت لسانه. فهرب إلى اليمن، ثم ركب بحر عدن، وقال في هربه:

أتني عن الحجاج والبحر بيننا عقارب تسري والعيون هواجع
فضقت بها ذرعاً وأجهشت خيفة ولم آمن الحجاج والأمر قاطع
وحلّ بي الخطبُ الذي جاءني به سميع فليست تستقرّ الأضالع
فبت أدير الأمر والرأي ليلتي وقد أخضلت خدي الدموع الهوامع
فلم أر لي خيراً من الصبر إنه أعف وأحرى إذ عرتني الفواجع
وما أمنت نفسي الذي خفت شرّه ولا طاب لي ما حبّته المضاجع
إلى أن بدا لي رأس إسبيل طالعاً وإسبيل حصن لم تنله الأصابع
فلي عن ثقيف إن هممت بنجوة مهامه تعفى بينهنّ الهجارع
وفي الأرض ذات العرض عنك ابن يوسف إذا شئت منأى لا أبالك واسع
فإن نلتني حجاج فاشتف جاهدأ فإن الذي لا يحفظ الله ضائع
قال: فطلبه الحجاج، فلم يقدر عليه، ثم طال على النميري مقامه هارباً، واشتاق إلى وطنه فجاء حتى وقف على رأس الحجاج.

فقال له الحجاج: يا نميري، أنت القاتل:

فإن نلتني حجاج فاشتف جاهدأ

فقال: بل أنا أقول:

أخاف من الحجاج ما لست خائفاً من الأسد العرباض لم يثنه دعر
أخاف يديه أن تنال مفاصلي بأبيض غضب ليس من دونه ستر
وأنا الذي أقول:

فها أنا قد طوّفت شرقاً ومغرباً وأبتُ وقد دوّخت كلّ مكان
فلو كانت العنقاء عنك تطير بي لخلتك - إلّا أن تصدّ - تراني
قال: فتبسم الحجاج، وأمنّه، وقال: لا تعاود إلى ما تعلم، وخلي
سبيله.

أدباء العالم والسفر

وقفنا على قصائد السفر وأحوال المسافرين عند الأدباء العرب فلعلّه من المناسب أن نشير إشارة سريعة إلى النظرة العالمية للسفر عند بعض الأدباء العالميين .

إن السفر هو السفر في منظور الناس جميعاً من حيث المشقة والمعاناة ومن حيث إنه أمرٌ محبوب وحلمٌ مرغوب عند الإنسان للمعرفة والاكْتساب، وطلب الرزق، والنزهة وغير ذلك .
ولكن لكل نظرة معينة للسفر ومراميه، وإليك بعض ما قاله أدباء عالميون عن السفر .

في الغرب الشاعر الفرنسي «بودلير» يحلم بالسفر، على رصيف مقهى، أو شاطئ ميناء، يسأل المسافرين في لهفة، ويدون سؤاله لهم عما رأوا في هذه المقطوعة الشعرية الجميلة قبل أن ينفذ حلمه بالسفر إلى الشرق :

«أيها المسافرون المثيرو الدهشة .. أية حكايات نبيلة نقرأ في عيونكم العميقة كالبحار .. أرونا علب ذكرياتكم الثرية .. حلي الأعاجيب المصنوعة من النجوم والأثير .. نريد أن نسافر بلا بخار ولا شرع .. فدعوا ذكرياتكم في أطرها .. تنسم من الآفاق .. على أفكارنا الممدودة كالأستار .. لتغمر بالبهجة مضيق سجوننا .. وقلوا: ماذا رأيتم؟»
طاغور شاعر دائب السفر :

أما السفر عند شاعر الهند «طاغور» الذي كان دائب السفر بعد شهرته

العالمية، فيعني أموراً أخرى، لقد كان طاغور رحالة دائم السفر، يتحدى التعب، في رحلته السادسة وحدها زار الشرق الأقصى، وأمريكا الجنوبية، وأوروبا ماراً بماليزيا، والصين، واليابان، وبيرو، والأرجنتين، وإيطاليا، في رحلته السابعة، وإثر مرض سابق من إجهاد السفر، زار إيطاليا، وسويسرا، والنمسا، وفرنسا، وإنجلترا، والنرويج، والسويد، والدانيمرك، وألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا واليونان، ومصر. . كل ذلك في رحلة واحدة، يلقي فيها الناس مبتسماً، ويلتقي فيها بالناس، ليلقي عليهم شعره، وعن أسفاره هذه كتب يقول، مبرراً إياها.

«أيام أسفاري طويلة، وطريقي بعيد.

خرجت في موكب الشعاع الأول، وجبت العوالم الخالية.

وتركت أشياء مني على ألوف النجوم والكواكب.

ولكن أبعد الطرق أقربها إليك.

على المسافر أن يطرق كل باب. قبل الوقوف على باب نفسه.

وعليه أن يهيم في مسرح العوالم الخارجية قبل أن يهتدي إلى قدس أقداسه.

عيناى كم جابتا في فضاء، قبل أن أغمضهما، وأقول: أنت هنا».

أسفار عديدة من أجل السلام. . والموت!

كان طاغور يسافر لأنه يبشر بفكرة السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان،

يسافر من أجل هذه الفكرة، رحلته الثامنة، فالتاسعة، فالعاشرة، حتى بعد

أن بلغ السبعين من عمره، وعندما استقر به المقام شيخاً فانياً، كان السفر

ما يزال يراود نفسه، ليوثق علاقة خلقية ودية بين الشعوب، بل ويراد نفسه للرحيل عن الدنيا:

«إن نفسي تلبس اليوم رداء المسافر وتهيم، يلح عليها ظمأ نائر .
فهي متلهفة إلى الاندفاع في الطريق .

إنه المسافر الأبدي، في بطاح الأرض، يدرس أوضاع الشعوب، باحثاً عن نقاط تلاقيها، لا يهدأ، ولا يطمئن .

إنه غريب يحن إلى موطن غير هذا الوطن، يشعر فيه بأمن يستمر .
أغوص في أعماق الأشكال، لعلني أصيب للؤلؤة الفريدة، العارية من كل شيء .

تركت السفر من مرفأ إلى مرفأ، على زورق تصنعه الأنواء .

لقد مضى زمن كنت ألوه به في مصارعة الموج .

إنني أصبو الآن إلى الموت، في جوار من لا يموت .

في ردهة الاستقبال، على شفير هاوية، ليس لعمقها غور، ولا لموسيقاها
لحن، سأتناول معزف حياتي :

أيا أيها اللحن الأبدي، سأوقعك على معزفي»

ويرى طاغور أيام الحياة الباقية له على الأرض، أيام سفر، ككل أيام
الحياة، فيهتف لمن هو نور خالد :

«إنني كباقة ضائعة، في سماء الخريف، فمتى يا شمس السناء الخالد،
يذيب لمسك ضبابي، إنني لأحسب شهور سفري، أعواماً تفصلني عنك» .

السفرة الطويلة . . والأخيرة!

وقبل اللحظة الأخيرة بدأ طاغور سفرته الطويلة والأبدية . فهمس :

«أزفت ساعة الرحيل . .

إني أسافر فارغ اليدين .

طافح القلب بالأمل .

الطير يحلق في الفضاء .

لا ليذهب في تحليقه إلى الخلاء .

بل ليرجع ثانية إلى أرضه العظمى»

ذلك كان معنى السفر وغايته عند «طاغور» في البدء، وفي النهاية،

لكنه عند الشاعر اليوناني «كافيس» كان ذا معنى آخر

السفر هدف لذات السفر :

في الأساطير اليونانية، كان البطل الإغريقي الأسطوري «أوليس» يتوق

للعودة إلى «إيثاكا» مدينته ومسقط رأسه، ووطن زوجته «بنيلوبي» وولده،

لكنه كتب عليه أن يظل سنين عديدة يضرب في تيه البحر الأبيض بسفينته .

«إذا ما شددت الرحال إلى «إيثاكا» فلتتضمن أن يكون الطريق طويلاً،

حافلاً بالمغامرات مليئاً بالمعارف . لا تخف الغيلان والمردة، وإله البحر

الغاضب - كما يزعم - فإنك لن تلقاها في طريقك . مادام فكرك سامياً،

والعاطفة خالصة، تقود روحك ومقصداك فلن تقابلن الغيلان والمردة،

وإله البحر الغاضب، ما لم تكن قد جلبتها معك في أعماقك، وما لم تكن

روحك قد أقامت أمامك .

تمن أن يكون الطريق طويلاً، وأصبحة الصيف كثيرة، تدخل فيها فرحاً

مبتهجاً، إلى موانئ تراها لأول مرة .

توقف عند أسواق سورية، واحصل على البضائع الجيدة، أصداف ومرجان وكهرمان، وأبنوس وعطور متعددة، من كل نوع، وعلى الأخص من العطور، خذ قدر ما تستطيع.

واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة لتتعلم، وتتعلم من الجهابذة. لتكن «إيثاكا» في فكرك دائماً، والوصول إليها هو مقصدك، ولكن لا تتعجل في سيرك، الأفضل أن يدوم السفر سنين عديدة، وأن تصل إلى الجزيرة عجوزاً غنياً، بما كسبته في الطريق.

لا تتوقع أن تعطيك إيثاكا ثراءً، لقد منحتك إيثاكا الرحلة الجميلة، فما كنت تخرج إلى الطريق لولاها، وليس لديها أن تعطيك أكثر من ذلك.

ولو وجدت إيثاكا فقيرة، فهي لم تخذعك، ومادمت قد صرت على هذا القدر من الحكمة، ولك كل هذه الخبرة، فلا بد أنك قد فهمت: ماذا تعني إيثاكا؟ وأي إيثاكا!!

السفر رمز لكل تغير وتطور:

شاعر يوناني آخر، من اليونان يدعونا إلى أن نبسط الشراع، شراع السفر، السفر الرمز لكل تغير وتطور، في أنفسنا، وفي حياتنا، وفي أرضنا، هذه الدعوة يوجهها الشاعر «أورانيس» لقومه من أبناء اليونان، ولأسرته العالمية، من سائر أبناء الإنسان، تحت هذا العنوان: «متى سنبسط الشراع؟»:

«متى سنبسط الشراع،

لنرحل إلى أرض الشمال؟

متى سنمتطي أمواج البحر؟

آن الألوان، أن نكف عن رؤية الميناء الخامل، الذي لا تتغير صورته أبداً
أمامنا.
فليَمحُ اندفاعنا الجديد، جمود حياتنا القديمة، كما تمحو الأمواج آثار
الأقدام على الرمال.
ارفعوا الروح علماً يرفرف بأعلى سارية، فليس صحيحاً أننا جئنا إلى
عصرنا متأخرين،
لا زال بإمكاننا أن نحيا حياة جديدة،
أن نبسط الشراع»!!.

«راجع مجلة العربي عدد ١٨٧ سليمان فياض»

من أخبار المسافرين (٣٦) حليلة تسافر باليتيم

سافرت حليلة السعدية من بني سعد «ثقيف» قاصدة مكة المكرمة ومعها زوجها وابنٌ لها صغير ومجموعة من النساء . سافرت حليلة ومن معها حينما أجذبت الأرض ، وامتنع القطر ، وعُظمتُ الفاقة ، واشتدت الحاجة سافرن يتلمَّسن الرُّضعاء ، حيث كانت تلك عادة مشهورة ، وسنةً متبعة عند أهل مكة والأغنياء منهم على وجه الخصوص ، كانوا يبعثون أبناءهم إلى البادية لترتاح الأم المترفة من تعب الرضاعة والتربية ولأمرٍ أهم من ذلك وهو تعليمهم وتأديبهم ، وتدريبهم على الفصاحة والشجاعة ومكارم الأخلاق ، وغير ذلك من الأهداف . ويبدلون للمرضعات مكافآت طيبة ، وأجرة مجزية .

ولنترك الحديث الآن لهذه المسافرة التي كانت تتمنى أن تقع يدها على رضيع من أسرة غنية يكون والده موجوداً لتظفر بالأعطيات ، وتفوز بالهبات ولكن يقع سهمها على طفلٍ يتيم فتحزن لذلك ، فكان ذلك اليتيم مفتاح السعادة لحليلة السعدية ، لقد أخذت يتيماً إلا أن هذا اليتيم فيما بعد هزَّ الدنيا ، وغيَّر وجه التاريخ ، وأذعن له العظماء ، وجثا أمامه الأغنياء ، وتسابق إليه الوجهاء .

أنت اليتيم ولكن فيك ملحمةٌ يذوب في ساحها مليون جبارٍ تقول حليلة :

فخرجت على أتانٍ لي - أنثى الحمار - قَمراء معنا شارفٌ لنا ، والله

ما تَبَضُّ بِقَطْرَةٍ - ما ترشح -، وما ننام ليلنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يُغْنِيهِ، وما في شارفنا ما يغذِّيه، ولكنَّا كنَّا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانِي، فلقد أَدَمْتُ بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً حتى قدَّمنا مكَّةً نلتمس الرُّضْعاءَ، فما مِنَّا امرأةٌ إلَّا وقد عُرضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنمَّا كنَّا نرجو المعروفَ من أبي الصبيِّ، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدَه! فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأةٌ كانت معي إلَّا أخذت رضيعاً، غيري. فلمَّا أجمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبي: والله إنِّي لأكرهُ أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلاخذنه! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة!

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حَمَلَنِي على أخذه إلَّا آتِي لم أجد غيره. فلمَّا أخذته رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعتُه في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن؛ فشرب حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ ثم ناما، وما كنَّا ننام منه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رِيًّا وشبعاً، فبتنا بخير ليلة!

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعَلَّمِي والله يا حليلة، لقد أخذت نَسَمَةَ مباركة! فقلت: والله إنِّي لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أنا أتانِي، وحملته عليها معي، فوالله لَقَطَطُ بالركب ما يقدِّر عليها شيءٌ من حُمْرهم، حتى إنَّ صواحيبي ليقلن لي:

يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي! فيقلن: والله إن لها لشأنا!

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها؛ فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فتحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً - الغليظ الشديد -، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمه وقلت لها: لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ، فإني أخاف عليه وباء مكة. فلم نزل بها حتى ردّته معنا.

فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدّمنا به بأشهرٍ ومعه أخوه لفي بهم - صغار الغنم - لنا خلف بيوتنا إذ أتاننا أخوه يشتدّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأضجعا فشقا بطنه، فهما يسوطانه - يفران بعضه ببعض -!

فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدته قائماً مُنتقعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه.

فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أُصيبَ، فالحقِ به بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به. فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه، فقالت: ما أقدمكِ به يا ظئر - المرأة ترضع ولد غيرها - وقد كنت حريصة عليه وعلى مَكْنِهِ عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيتُ الذي عليّ، وتخوّفتُ الأحداث عليه، فأدّيته إليك كما تحيّن. قالت: ما هذا شأنكِ فاصدّقيني خبركِ. فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلاً، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيّ لشأناً، أفلا أخبركِ خبره؟ قلت: بلى؛ قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء قصور بُصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفّ عليّ ولا أيسرَ منه، ووقع حين ولدته وإنه لو اضعُ يديه بالأرض، رافعُ رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقِي راشدة.

وقفة مع اليتيم:

بعض أصحاب الرسول ﷺ اشتاقوا إلى معرفة شيء من أخباره فسألوه قائلين: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى أخِي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر.

فبينما أنا مع أخ لي خلفَ بيوتنا نرعى بهماً لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيض، بطستَ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشَقَّا بطني، واستخرجا قلبي فشَقَّاه، فاستخرجا منه عِلْقَةً سوداء فطرحاها، ثم غَسَلَا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقَيَاه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه

بعشرة من أمته . فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته . فوزنني بهم فوزنتهم . ثم قال : زنه بألف من أمته . فوزنني بهم فوزنتهم . فقال : دعه ؛ فوالله لو وزنته بأمته لوزنها عليه السلام . [انظر لتخريجه : الصحيحة : ١٥٤٥] . قلت :

واقرأ برّبك مبدا سورة القلم
على المنائر من عُرْب ومن عَجَم
في تُربة الوهم بين الكأس والصنم
وأبدعت وروث ما قلت للأمم
وأخرف وقواف كن في صمم
ومن علي؟ ومن عثمان ذوالرحم؟
مالك؟ ومن الثعمان في القمم؟
سفيان؟ والشافعي الشهم ذوالحكم
بل الملايين أهل الفضل والشمم
أنت الإمام لأهل الفضل كلهم
تباً لقصر منيف بات في نغم
عيناك تعدو إلى اللذات والنعم
إن بات غيرك عبد الشخم والثخم
العين تغفو وأما القلب لم ينم
حتى تغلغل الأورام في القدم
ودمع عينيك مثل الهاطل العمم
وشيتك بهود آية «استقم»

يكفيك عن كل مدح مدح خالقه
شهم تشيد به الدنيا برمتها
أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت
نفضت عنها غبار الذلّ فاتقدت
محابر وسجلات وأنديّة
فمن أبوبكر قبل الوحي؟ من عمر؟
من خالد؟ من صلاح الدين قبلك؟ من
من البخاري؟ ومن أهل الصحاح؟ ومن
من ابن حنبل فينا وابن تيمية؟
من نهرك العذب يا خير الوري اغترفوا
بيت من الطين بالقرآن تعمره
طعامك التمر والخبز الشعير وما
تبيت والجوع يلقي فيك بغيته
لما أتك «قم الليل» استجبت لها
ثمسي تناجي الذي أولاك نعمته
أزيرُ صدرك في جوف الظلام سري
الليل تسهره بالوحي تعمره

تسير وَفَقَ مراد الله في ثقةٍ
فَوَضَّتْ أَمْرَكَ لِلدِّيَانِ مُصْطَبِرًا
وَلَيْ أَبُوكَ عَنِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَرَهُ
وَمَاتِ الْأُمُّ لَمَّا أَنْ أَنْسَتْ بِهَا
وَمَاتَ جَدُّكَ مِنْ بَعْدِ الْوُلُوعِ بِهِ
فَجَاءَ عُمُّكَ حَصْنًا تَسْتَكِنُ بِهِ
تُرْمِي وَتُؤْذِي بِأَصْنَافِ الْعَذَابِ فَمَا
حَتَّى عَلَى كَتْفَيْكَ الطَّاهِرِينَ رَمَوْا
أَمَّا خَدِيجَةُ مِنْ أَعْطَنِكَ بِهَجَّتِهَا
وَلَتْ إِلَى جَنَّةِ الْبَارِي وَرَحْمَتِهِ
وَالْقَلْبُ أَفْعَمَ مِنْ حَبِّ لِعَائِشَةِ
وَشُجَّ وَجْهِكَ ثُمَّ الْجَيْشُ فِي أَحَدٍ
لَمَّا رُزِقَتْ بِإِبْرَاهِيمَ وَامْتَلَأَتْ
وَرُغْمَ تِلْكَ الرِّزَايَا وَالْخُطُوبِ وَمَا
مَا كُنْتَ تَحْمِلُ إِلَّا قَلْبَ مُحْتَسِبٍ
بَنِيْتَ بِالصَّبْرِ مَجْدًا لَا يَمِثُّهُ
يَا أُمَّةً غَفَلَتْ عَنْ نَهْجِهِ وَمَضَتْ
تَعِيشُ فِي ظِلْمَاتِ النَّيِّهِ دَمَرَهَا
يَوْمًا مُشْرِقَةً يَوْمًا مُغْرِبَةً
لَنْ تَهْتَدِيَ أُمَّةٌ فِي غَيْرِ مَنْهَجِهِ

ترعاك عَيْنُ إِلَهٍ حَافِظٍ حَكَمٍ
بَصْدُقْ نَفْسٍ وَعِزْمٍ غَيْرِ مُثْلَمٍ
وَأَنْتِ مُرْتَهَنٌ لَازِلَتْ فِي الرَّحِمِ
وَلَمْ تَكُنْ حِينَ وَلَّتْ بِالْبَلْغِ الْحُلَمِ
فَكُنْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي ذُرْوَةِ الْيَتَمِ
فَاخْتَارَهُ الْمَوْتُ وَالْأَعْدَاءُ فِي الْأَجَمِ
رُئِيتَ فِي ثَوْبِ جَبَّارٍ وَمُنْتَقِمِ
سَلَا الْجَزُورِ بِكَفِّ الْمَشْرُكِ الْقَزَمِ
وَالْبِسْتِكَ رِذَاءَ الْعَطْفِ وَالْكَرَمِ
فَأَسْلَمْتِكَ لِجُرْحٍ غَيْرِ مُلْتَمِ
مَا أَعْظَمَ الْخُطْبَ فَالْعَرْضَ الشَّرِيفَ رُمِي
يَعُودُ مَا بَيْنَ مَقْتُولٍ وَمَنْهَزِمٍ
بِهِ حَيَاتُكَ بَاتَ الْأَمْرُ كَالْعَدَمِ
رَأَيْتَ مِنْ لَوْعَةٍ كُبْرَى وَمِنْ أَلَمٍ
فِي عَزْمٍ مُتَّقِدٍ فِي وَجْهِ مُبْتَسِمِ
مَجْدٌ وَغَيْرُكَ عَنْ نَهْجِ الرِّشَادِ عَمِ
تَهِيمٌ مِنْ غَيْرِ لَا هَدْيٍ وَلَا عِلْمِ
ضَعْفُ الْأَخَوَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْهَمِّ
تَسْعَى لِنَيْلِ دَوَاءٍ مِنْ ذَوِي سَقَمِ
مَهْمًا ارْتَضَتْ مِنْ بَدِيعِ الرَّأْيِ وَالنُّظْمِ

[من قصيدة للمؤلف في الثناء على السراج المنير والبشير النذير ﷺ]

وسائل السفر القديمة

لقد تحدثنا عن وسائل السفر الحديثة بما يكفي ويشفي؛ فقد تعرضنا للحديث عن السفر في السيارة والطائرة والقطار والبحر، وهذه نعم عظيمة أنعم الله بها على الناس، فأصبحوا يتجولون في أنحاء الدنيا، ويسافرون من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، أو بالعكس، وكل ذلك في مراكب مريحة وعبر وسائل متطورة، وفي أوقات وجيزة، فلم يُعد هنالك السفر الذي يستمر عدة أشهر ليصل الإنسان إلى مكان بعيد. ولم يعد هنالك قطع الفيافي المخيفة، واجتياز الصحاري الواسعة، والبيد الشاسعة، والتعرض لوهج الظهيرة، وحرارة الشمس، وزمهرير الشتاء، أو المغامرة في الطرق المخيفة الممتلئة بالسباع والوحوش الكاسرة، وقطاع الطرق، كل هذه المخاوف تلاشت، وكل هذه المتاعب توارت، فهل حمدنا الله تعالى على هذه النعم العظيمة.

يا أخي المسافر إذا كان الله تعالى قد امتنَّ على الناس بأنه سخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوها وأخبرهم أنها نعمة تستحق الشكر، مع ما فيها من التعب والعناء فكيف بنا وقد هيا لنا كل هذه الوسائل وأنعم علينا بأحسن البدائل؟!!! انظر إلى روعة ما قاله ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّاتَمَنَّا خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ

رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴿٨﴾
ثم تأمل السرّ الرائع واللفتة العظيمة في قوله تعالى في آخر الآيات: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾ وكأنها إشارة للناس في ذلك الزمن بأن هنالك وسائل أخرى سنجعلها للناس فيما بعد لا تعلمونها أنتم، تلك الوسائل هي ما وصل إليه العلم الحديث؛ من طائرات، وقطارات، وسيارات، وبواخر... ولا ندري ماذا يستجد من أمور فيما يستقبل من الزمن، ولكن هذه الوسائل المريحة لها ضريبة كبيرة وذلك في حوادثها المرعبة، وضحاياها الكثيرة، وفي ضعف بنية الإنسان ونشاطه بسبب القعود والكسل وعدم الحركة والمشى... إلى غير ذلك.

أخي المسافر... لقد رأيت أنه من المناسب إن لم يكن من الواجب علينا ونحن نتحدث عن السفر والمسافرين ووسائل السفر أن نتعرض لوسائل السفر عند القدماء وكيف اهتموا بها، وأولوها أعظم العناية، فتفننوا في وصفها، وأبدعوا في نعتها، فوصفوها عضواً عضواً، وجزءاً جزءاً وسموها بأسماء ونعتوها بصفات تدهش العقل وتأخذ الألباب، حتى أصبحت تجد لبعض رواحلهم مئات الأسماء، فأى شيء تلك الرواحل، وما هي هاتيك الوسائل؟

أهم وسائل السفر عند القدماء هي الإبل - والناقة على وجه الخصوص -، فقد حظيت بنصيب كبير، وحظّ وفير في أدبهم وأشعارهم، وكذلك الخيل التي كانت أهميتها تبرز في الحروب أكثر منها في السفر وهنالك أيضاً البغال والحمير...

وإليك الآن وصفاً لبعض وسائل السفر القديمة.

ولصعوبة هذه القصائد وحاجة كثير من كلماتها إلى الشرح فقد وضعنا حواشي لشرحها.

١- امرؤ القيس يصف الفرس :

هذا مقطع من معلقة امرؤ القيس يصف فيه فرسه فيقول:

وقد أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدِ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ^(١)
مَكْرٌ مَفَرٌ مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجُلُودِ صَخِرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلِ^(٢)
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَاذِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ^(٣)
عَلَى الْعَقَبِ جَيَّاشٍ كَأَنَّهُ اهْتِزَامُهُ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيهُ غَلِيٌّ مِرْجَلِ^(٤)
مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَثْرَنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ^(٥)
يَزِلُّ الْغَلَامُ الْخِفُّ عَنْ صَهَوَاتِهِ، وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ^(٦)
دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ^(٧)

- (١) وكُنَات: واحدها وكنة: العش. المنجرد: القصير الشعر. الأوابد: الوحوش النافرة. الهيكل: الضخم من كل شيء.
- (٢) مكر مفر: سريع الكر والفر. يشبه عدو الفرس في كره وفره وإقباله وإدباره بجلاميد الصخر تحطها السيول.
- (٣) كُمَيْت: خالط حمرة سواد. يَزِلُّ: يسقط. حاذ متنه: وسط ظهره. الصفواء: الصخرة الملساء. المتنزل: المطر ينزل من السماء.
- (٤) العقب: شدة الحضر، العدو. اهتزامه: تكسر صهيله في صدره. المِرْجَل: القدر.
- (٥) الْمُسْحُ، من سَحَّ: صَبَّ. أراد أنه يصب العدو صباً. السابحات: الخيول التي تمد أيديها في عدوها. الونى: التعب. الكديد: الأرض الصلبة. المُرْكَل: الذي ركلكه الأرجل، ضربته.
- (٦) الخف: الخفيف. يلوي: يرمي. المثلث: الثقيل.
- (٧) درير: كثير الجري. الخذروف: حصاة مثقوبة يديرها لصبي في يديه بخيط وهو منهي عنه. أمره: قتله.

- لَهُ أُيْطَلَا ظَبِي وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفُلٍ^(١)
ضَلِيعٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتُهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلٍ^(٢)
كَأَنَّ سَرَاتَهُ لَدَى الْبَيْتِ قَائِمًا مَدَاكُ عَرُوسٍ أَوْ صَلَايَةٍ حَنْظَلٍ^(٣)
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ عُصَارَةٌ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ^(٤)
فَعَنَ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَيَّلٍ^(٥)
فَأَذْبَرَنَ كَالْجَزْعِ الْمُفْصَلِ بَيْنَهُ بِجِيدٍ مُعَمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ^(٦)
فَالْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَةٍ لَمْ تَزِيلَ^(٧)
فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلَ^(٨)
فَظَلَّ طُهَاءُ اللَّحْمِ مَا بَيْنَ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعْجَلٍ^(٩)

- (١) الأيطل: الخاصرة. السرحان: الذئب. الإرخاء: ضرب من عدو الذئب. التنفل: ولد الثعلب. التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو.
(٢) الضليع: العظيم الأضلاع. استدبرته: نظرت إليه من خلف. ضاف: طويل سابغ. الأعزل: الذي يميل ذنبه إلى أحد الشقين.
(٣) السراة: ظهر الفرس. المداك: الحجر الذي يسحق به الطيب. الصلاة: الحجر الأملس الذي يسحق عليه الحنظل.
(٤) الهاديات: المتقدّمات من الصيد. مرجل: مسرح.
(٥) عَنَ: عَرَضَ. السَّرْبُ: القطيع. النعاج: البقر. الدوار: حجر كانوا في الجاهلية ينصبونه يطوفون حوله. المذيل: الطويل الأطراف.
(٦) الجزع: الخرز اليماني. المفصل بينه: الذي فصل بين حباته. المعم والمخول: كريم العم والخال.
(٧) الجواهر: المتخلفات. في صرة: في جماعة. لم تزيل: لم تتفرق.
(٨) عادى عدا: وإلى موالاة بين ثور ونعجة. دراكا: تباعاً. لم ينضح: لم يعرق.
(٩) اللحم الصفيف: الذي صف على النار ليشوى. قدیر: مطبوخ في القدر.

وَرُحْنَا يَكَادُ الطَّرْفُ يَقْصُرُ دُونَهُ متى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْقِلُ^(١)
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلِجَامُهُ وبَاتَ بَعِيثِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْسَلٍ^(٢)
٢- النابغة الذبياني يصف ناقته :

وهذا مقطع من قصيدة من روائع الشعر الجاهلي للنابغة الذبياني
يصف فيها ناقته فيقول :

إِذَا تَغَنَّى الْحَمَامُ الْوُزُقُ هَيَّجَنِي، وَإِنْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمُّ عَمَّارٍ
وَمَهْمِهِ نَازِحٌ تَعْوِي الذَّنَابُ بِهِ، نَائِي الْمِيَاهِ عَنِ الْوُزَادِ، مِقْفَارٍ^(٣)
جَاوَزْتُهُ بَعْلَنَدَاةٍ مُنَاقِلَةٍ، وَغَرَّ الطَّرِيقُ عَلَى الْإِحْزَانِ، مِضْمَارٍ^(٤)
تَجْتَابُ أَرْضًا إِلَى أَرْضٍ بِذِي زَجَلٍ مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ، هَادٍ غَيْرَ مِخْيَارٍ^(٥)
إِذَا الرُّكَّابُ وَنَتْ عَنْهَا رَكَائِبُهَا، تَشَدَّرَتْ بِبَعِيدِ الْفَتْرِ خَطَّارٍ^(٦)
كَأَنَّمَا الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ ذِي جُدَدٍ ذَبَّ الرِّيَادِ إِلَى الْأَشْبَاحِ نَظَّارٍ^(٧)

- (١) يصف فرسه فيقول: إن العين تعجز عن استقصاء محاسنه، فترقى لتنظر في أعالي خلقه، ثم تنظر إلى أسافله.
- (٢) يريد أنه بات مسرجاً ملجماً بين يديه غير مرسل إلى المرعى.
- (٣) المهمة: الوادي الموحش. النازح: البعيد. الوزاد، واحده وارد: من ورود الماء. المقفار: المقفر لا أنيس به.
- (٤) علنداة: شديدة. مناقلة: سريعة نقل القوائم، في جري بين العدو الخبب. الإحزان: المشي في الحزن، وهو ما صلب من الأرض. مضمار: كثيرة الضمور.
- (٥) تجتاب: تقطع وتجنب. الزجل: الصوت. المخيار: الشديدة الحيرة.
- (٦) ونت: ضعفت. تشدّرت: نشطت. الفتر: الضعف. خطار: كثير الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضي.
- (٧) الجدد: الطرائق، الواحدة جدة. وأراد بذى الجدد: الثور الوحشي تعلو ظهره خطوط بيض وحمرة. الذب: الدفع. الرياد: التجول. إلى الأشباح نظار: كناية عن =

- مُطَرَّدٌ أَفْرَدَتْ عَنْهُ حَلَائِلُهُ، مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ أَوْ مِنْ وَحْشٍ ذِي قَارٍ^(١)
 مُجَرَّسٌ، وَحَدٌّ، جَابٌ، أَطَاعَ لَهُ نَبَاتٌ غَيْثٌ مِنَ الْوَسْمِيِّ مَبْكَارٍ^(٢)
 سَرَاتُهُ مَا خَلَا لَبَانُهُ لَهَقٌ، وَفِي الْقَوَائِمِ مِثْلُ الْوَشْمِ بِالْقَارِ^(٣)
 بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ بِحَاصِبِ ذَاتِ إِشْعَانٍ وَإِمْطَارٍ^(٤)
 وَبَاتَ ضَيْفًا لِأَرْطَاةٍ، وَالْجَاءُ، مَعَ الظَّلَامِ، إِلَيْهَا وَابِلٌ سَارٍ^(٥)
 حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ ظُلُمَاءُ لَيْلَتِهِ، وَأَسْفَرَ الصَّبْحُ عَنْهُ أَيَّ إِسْفَارٍ^(٦)
 أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلِهِ، عَارِي الْأَشْجَاعِ، مِنْ قُنَاصٍ أَنْمَارٍ^(٧)
 مُحَالِفُ الصَّيْدِ، هَبَّاشٌ، لَهُ لَحْمٌ مَا إِنَّ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرُ أَطْمَارٍ^(٨)

- = المرح، لأن الثور الوحشي يكثر من العدو في الصحراء كلما تراءت له الأشباح.
 (١) مطرد: مشرد. أفردت عنه حلائله: أبعدت عنه زوجاته. وجرة وذو قار: موضعان.
 (٢) المجرس: الخائف لسماعه جرس الإنسان أي صوته. وحد: وحيد. جاب: صلب شديد، الوسمي: أول المطر، ومثله المبكار. وصف الثور الوحشي بالذعر والقوة.
 (٣) سراته: ظهره. لبانه: صدره. لهق: أبيض. القار: الزفت.
 (٤) ليلة شهباء: أي تهب فيها ريح باردة. تسفعه: تلفحه وترميه. الحاصب: الريح تقذف بالحصباء أي الحصى. الإشعان، من الشعن: ما تنثر من ورق العشب بعد يسه.
 (٥) الأرطاة، واحدة الأرطي: شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعنب وهي مرة تأكلها الإبل غضة. الوابل: المطر الغزير. الساري: المطر يسح بالليل.
 (٦) انجلت: انكشفت. أسفر: أضاء.
 (٧) أهوى له: انقض عليه. الأشجاع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، وعريها محمود في الرجال. أنمار: قبيلة مشهورة بالصيد.
 (٨) هباش: كثير الهبش وهو الكسب. له لحم: كثير اللحم. أطمار الواحد طمر: الثوب الخلق

- يَسْعَى بِغُضْفٍ بَرَاهَا فَهِيَ طَاوِيَةٌ،
 حَتَّى إِذَا الثَّورُ، بَعْدَ النَّفْرِ، أَمَكَّتْهُ،
 فَكَّرَ مَحْمِيَّةً مِنْ أَنْ يَفِرَّ كَمَا
 فَشَكَ بِالرُّوقِ مِنْهُ صَدْرَ أَوْلَهَا،
 ثُمَّ انْتَشَى بَعْدَ لِلثَّانِي، فَأَقْصَدَهُ
 وَأَثَبَتِ الثَّالِثَ الْبَاقِيَ بِنَافِذَةٍ،
 وَظَلَّ فِي سَبْعَةٍ مِنْهَا لِحَقْنَ بِهِ
 حَتَّى إِذَا مَا قَضَى مِنْهَا لِبَانَتَهُ،
 انْقَضَ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلِتًا
- طَوْلُ ارْتِحَالٍ بِهَا مِنْهُ وَتَسْيَارٌ^(١)
 أَشْلَى وَأَرْسَلَ غُضْفًا كُلُّهَا ضَارٍ^(٢)
 كَرَّ الْمُحَامِي حِفَاطًا، خَشِيَّةَ الْعَارِ^(٣)
 شَكَ الْمُشَاعِبِ أَعْشَارًا بِأَعْشَارِ^(٤)
 بَذَاتٍ ثَغْرِ، بَعِيدِ الْقَعْرِ، نَعَارٍ^(٥)
 مِنْ بَاسِلٍ، عَالِمٍ بِالطَّعَنِ، كَرَّارٍ^(٦)
 يَكُرُّ بِالرُّوقِ فِيهَا كَرَّ إِسْوَارٍ^(٧)
 وَعَادَ فِيهَا بِإِقْبَالٍ وَإِذْبَارٍ^(٨)
 يَهْوِي، وَيَخْلُطُ تَقْرِيْبًا بِإِحْضَارٍ^(٩)

- (١) الغضب، الواحد أغضب: اللين الناعم، من الغضب في الأذن أي الاسترخاء. أورد
 (٢) كلاب الصيد، براها: هزلها وأضعفها. طاوية: جائعة. النفرة: العدو. أشلى: دعا
 كلابه للصيد. الضاري: المعتاد الصيد.
 (٣) محمية: محافظة. المحامي: المدافع. أراد أن الثور كر ولم يفر.
 (٤) الروق: القرن. المشاعب: النجار الذي يشعب القدح ويصده فيصيره عشرة أجزاء.
 والقدح: السهم.
 (٥) أقصده: رماه. بذات ثغر: بطعنة ذات ثغر، أي شق. القمر: الغور. نعار: له نعيم،
 صوت.
 (٦) النافذة: الطعنة الماضية. الباسل: الشجاع.
 (٧) الإسوار: الرامي الحاذق.
 (٨) لبنته: حاجته.
 (٩) الدرّي: اللامع المتألّيء. منصلتاً: ماضياً في سرعة. التقريب والإحضار: ضربان
 من السير.

فَذاكَ شِبْهُ قُلُوصِي، إِذْ أَضَرَّ بِهَا طُولُ السُّرَى وَالسُّرَى مِنْ بَعْدِ أَسْفَارِ^(١)
٣- كعب بن زهير يصف راحلته :

كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» التي أنشدها بين يدي
رسول الله ﷺ حينما جاءه تائباً معتذراً مسلماً، يصف سفره إلى
الرسول ﷺ ويتعرض لوصف راحلته فيسهب في ذلك وينعتها بنعوت
عجيبة بديعة يقول:

أُمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ، النَّجِيَّاتُ، الْمَرَايِلُ^(٢)
وَلَنْ يُبْلَغَهَا إِلَّا عُذَافِرَةٌ، لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ^(٣)
مَنْ كُلُّ نَضَاخَةِ الذُّفْرِ إِذَا عَرَقَتْ عُرْضَتَهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ^(٤)
تَرْمِي الْغُيُوبَ بَعَيْنِي مُفْرَدٍ لَهَقٍ إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحِزَانُ وَالْمِيلُ^(٥)
ضَحْمٌ مُقْلَدٌ دُهَا، فَعَمَّ مُقَيَّدُهَا، فِي خَلْقِهَا عَن بَنَاتِ الْفَحْلِ، تَفْضِيلُ^(٦)

(١) القلوص: الناقة. السرى: السير بالليل.

(٢) العتاق: أي النوق العتاق، أي الكريمة. النجيات، الواحدة نجبية: الكريمة،
القوية. المراسيل: السهلة اليمين في السير.

(٣) العذافرة: الصلبة القوية. الأين: التعب والإعياء. الإرقال: سير سريع. التبغيل:
ضرب من السير يشبه سير البغال.

(٤) نضاخة: سائلة. الذفري: ما تحت أذن الناقة مما يلي الرقبة. عرضتها: أي
اهتمامها، ومقدرتها. طامس: مندرس، مختف. الأعلام، الواحد علم: الإشارة
على الطريق.

(٥) المفرد: المفرد، أراد بن الثور الوحشي. لهق: شديد البياض. الحزان، الواحد
حزين: الغليظ من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل، الواحد أميل.

(٦) المقلد: موضع القلادة، العنق. المقيد: موضع القيد، الرسغ، بنات الفحل: النوق.

غَلَبَاءُ، وَجَنَاءُ، عُلُكُومٌ، مُذَكَّرَةٌ،
وَجَلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لَا يُؤَيِّسُهُ
حَرْفٌ أَبُوهَا أَخُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ
يَمْشِي الْقِرَادُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يُزْلِقُهُ
عِيرَانَةٌ قُدِفَتْ بِالنَحْضِ عَنْ عُرْضٍ
كَأَنَّمَا فَاتَ عَيْنِيهَا وَمَذْبَحَهَا
تَمَرٌّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ
قَنَوَاءُ فِي حُرَّتَيْهَا، لِلْبَصِيرِ بِهَا
تَخْذِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهِيَ لَاهِيَةٌ

فِي دَفِّهَا سَعَةٌ، قُدَامُهَا مِيلٌ^(١)
طَلَحَ بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ، مَهْزُولٌ^(٢)
وَعَمَّهَا خَالُهَا، قَوْدَاءُ، شِمْلِيلٌ^(٣)
مِنْهَا لَبَانٌ، وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلٌ^(٤)
مِرْفَقُهَا عَنْ ضُلُوعِ الزُّورِ مَقْتُولٌ^(٥)
مِنْ خَطْمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بَرْطِيلٌ^(٦)
فِي غَارِزٍ لَمْ تُخَوِّنُهُ الْأَحَالِيلُ^(٧)
عِتْقٌ مُبِينٌ وَفِي الْخَذَيْنِ تَسْهِيلٌ^(٨)
ذَوَابِلُ، وَقَعْنُ الْأَرْضَ تَحْلِيلٌ^(٩)

- (١) غلباء: غليظة الرقبة. وجناء: عظيمة الوجنتين. علكوم: ضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدامها ميل: أي طويلة العنق.
- (٢) الأطوم: قيل إنها سلحفاء بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤيسه: يؤثر فيه. الطلح: القراد. ضاحية المتنين: ما برز للشمس من ظهرها.
- (٣) الحرف: الناقة الضامرة. مهجنة: كريمة. قوداء: طويلة العنق. شمليل: خفيفة.
- (٤) القراد: دويبة تتعلق بالبعير وغيره وهي كالقمل للإنسان. اللبان: الصدر. الأقرب: الخواصر، الواحد قرب. الزهاليل: الملساء، الواحد زهلول.
- (٥) عيرانة: صلبة كالعير. النحض: اللحم المتكتل. العرض: الجهة. الزور: الصدر.
- (٦) فات: تقدم. الخطم: مقدم الأنف. البرطيل: الحديد الطويلة، والحجر الطويل.
- (٧) عسيب النخل: الجريدة، شبه به ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخونه: تنقصه. الأحاليل، الواحد إحليل: مخرج اللبن من الثدي.
- (٨) قنواء: في أنفها حذب. حرتها: أذناها.
- (٩) اليسرات: القوائم. ذوابل: يابسة. تحليل: قليل.

- سُمِرَ الْعَجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَى زَيْمًا (١) وَلَا يَقِيهَا رُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيلُ
يَوْمًا تَظَلَّ حِدَابُ الْأَرْضِ تَرْفَعُهَا (٢) مِنَ اللَّوَامِعِ، تَخْلِيْطُ وَتَزِيلُ
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا، إِذَا عَرَقَتْ (٣) وَقَدْ تَلَفَعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ، وَقَدْ جَعَلْتُ (٤) وَرَقَ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى: قِيلُوا
شَدَّ النَّهَارِ، ذِرَاعًا عَيْطَلٍ نَصَفٍ، (٥) قَامَتْ فَجَاوِبَهَا تُكَدُّ مَشَاكِلُ
نَوَاحِيهِ، رُخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ، لَيْسَ لَهَا، (٦) لَمَّا نَعَى بِكَرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفَيْهَا، وَمِدْرَعُهَا (٧) مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا، رَعَابِيلُ
يَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا، وَقَوْلُهُمْ: (٨) إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سَلَمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلَّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ: لَا أَلْهَيْتُكَ، إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

- (١) العجايات: عصب قوائم الإبل. زيمًا: متفرقًا.
(٢) حداب الأرض: ما أشرف وغلظ منها. التزيل: التفريق. ولعله أراد باللوامع: السراب، أو البرق. وهذا البيت غير موجود في غير روايات.
(٣) أوب ذراعيها: رجع يديها وسرعة حركتها. تلفع: التحف. القور، الواحدة قارة: كل موضع مرتفع. العساقيل، الواحد عسقول: السراب.
(٤) الورق، الواحد أورك: الأخضر إلى السواد. يركضن: يضربن بقوائمهن. قيلوا: استريحوا في القائلة، نصف النهار.
(٥) شد النهار: أي في شد النهار، وقت ارتفاعه. ذراعا عيطل: خبر كان في البيت السابق. العيطل: المرأة الطويلة. النصف: المتوسطة في العمر. النكد، الواحدة نكداء: التي لا يعيش لها ولد. المشاكيل: الشكالي.
(٦) رخوة الضبعين: سريعة حركة الزندين.
(٧) تفري: تشق. اللبان: الصدر. مدرعها: قميصها. رعابيل، الواحد رعبول: قطعة متخرقة.
(٨) بجنيبها: الضمير للناقة.

فكَلَّ ما قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَذَبَاءَ مَحْمُولُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

فَقُلْتُ: خَلُّوا سَبِيلِي، لَا أَبَا لَكُمْ
كُلُّ ابْنِ أَنْثَى، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
عَنِ الْفِرْزْدَقِ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَاقَتِهِ:

هُمُومُ الْمُنَى وَالْهُوَجَلُ الْمُتَعَسِّفُ^(١)
مَنْ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفُ^(٢)
عَلَيْهَا مِنَ الْأَيْنِ الْجَسَادُ الْمَدْوَفُ^(٣)
وَفِيهَا بَقَايَا مِنْ مِرَاحٍ، وَعَجْرَفُ^(٤)
وَبَادَتْ ذُرَاهَا، وَالْمَنَاسِمُ رُعْفُ^(٥)
لَهَا نَحْضُ دَامٍ وَدَائِي مُجَنَّفُ^(٦)
إِذَا مَا أُنِيخَتْ، وَالْمَدَامِعُ ذُرْفُ^(٧)
حَرَاجِيحُ أَمْثَالُ الْأَسِنَّةِ شَسْفُ^(٨)
إِذَا حُلَّ عَنْهَا رِمَّةُ الْقَيْدِ مَرْسَفُ^(٨)

إِلَيْكَ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَمَتْ بَنَاتُ
وَعَضُّ زَمَانٍ، يَا ابْنَ مِرْوَانَ، لَمْ يَدَعْ
وَمَائِرَةَ الْأَعْضَادِ صُهْبًا، كَأَنَّهَا
نَهَضْنَ بَنَاتُ مَنْ سَيْفٍ رَمَلُ كَهِيلَةٍ
فَمَا وَصَلْتُ حَتَّى تَوَاكَلَ نَهْزُهَا
وَحَتَّى مَشَى الْحَادِي الْبَطِيُّ يُسَوِّفُهَا
وَحَتَّى قَتَلْنَا الْجَهْلَ عَنْهَا، وَغَوْدَرَتْ
إِذَا مَا أُنِيخَتْ قَاتَلَتْ عَنْ ظُهُورِهَا
وَحَتَّى بَعَثْنَاهَا، وَمَا فِي يَدِ لَهَا

- (١) الهوجل: الدليل. المتعسف: الماشي على غير هداية.
- (٢) المسحت: المال المتلف. المجلف: الذي بقي منه بقية.
- (٣) الأين: الإعياء. الجساد: الزعفران. المدوف: المخلوط.
- (٤) السيف: الشاطئ استعاره للرمل. كهيلة: موضع. العجرف: النشاط.
- (٥) تواكل: اتكل بعضها على بعض. نهزها: سيرها. المناسم: أخفافها. رُعْفُ: تسيل دماً.
- (٦) النحض: اللحم. الدأي: خرز الظهر. المجنف: المنحني.
- (٧) الحراجيح، الواحدة حرجوج: الناقة الطويلة. الشسف: الضامرة.
- (٨) المرسف، من رسف: مشى مشية المقيد.

إذا ما أريناها الأزمة أقبلت إليها بحرّات الوجوه، تصرّف
 ذرعن بنا ما بين يرين عرضه إلى الشام يلقاها رعاناً، وصفصف^(١)
 فأفنى مراح الذاعرية خوضها بنا الليل، إذ نام الدثور الملقف^(٢)
هـ أبو دلالة والبغلة:

ومن باب الطرفة نختم الحديث عن وسائل السفر القديمة بهذه
 القصيدة الساخرة المضحكة يسخر فيها الشاعر من بغلته التي ما ترك
 عيباً وصفةً دنيئةً إلا ألحقها بها وهي قصيدة طويلة لشاعر الفكاهة
 والسخرية «أبودلالة» ومنها:

أبعد الخيل أركبها وراداً وشقراً في الرّعل إلى القتال
 رزقت بُغيلة فيها وكال وخير خصالها فرط الوكال
 رأيت عيوبها كثرت وغالت ولو أفنيت مجتهداً مقالي
 ليحصى منطقي وكلام غيري عُشير خصالها شرّ الخصال
 فأهون عيها أني إذا ما نزلت وقلت: امشي لا تبالي
 تقوم فما تريم إذا استتمت وترمحنى وتأخذ في قتالي
 وإنني إن ركبت أذيت نفسي بضرب باليمين وبالشمال
 وبالرجلين أركضها جميعاً فيالك في الشقاء وفي الكلال
 تقطع جلدها جرباً وحكاً إذا هزلت وفي غير الهزال
 وألطف من ديبب الذر مشياً وتَنحِط من متابعة السعال

(١) رعان، الواحد رعن: أنف الجبل. الصفصف: المستوي من الأرض.

(٢) مراح: نشاط. الذاعرية: نوع من الإبل. الدثور: المتدثر بردائه. يصف هنا شدة
 البرد.

وتسقط في الوحول وفي الرمال
ويدبر ظهرها مسُّ الجلال
على أهل المجالس للسؤال
وبين كلامهم مما تُوالي
ويطاراً يعقّل بالشكال
جموحٌ حين تعزم للغزال
وليثٌ عند خشخة المخالي
أذلها من الشرب الزلال
وتذعر للصفير وللخيال
وقامت ساعةً عند المبال
من الأتبان أمثال الجبال
كأعظم حمل أحمال الجمال
إذا أوردت أو نهري بلال
وتذكر تبّعاً عند الفصال
وذو الأكتاف في الحجج الخوالي
وقبل فصاله تلك الليالي
وأخر يومها لهلاك مالي
يزين جمال مركبه جمالي

وتلقى سرجها أبداً شماساً
ويُهزئها الحمام: إذا خطاها
وتضطر أربعين: إذا وقفنا
فتُخرس منطقي وتحول بيني
وقد أعيت سياستها المكارى
حرونٌ حين تركبها لحضري
وذئبٌ حين تدنيها لسرج
وألف عصا وسوط كيف أمست
وتصعق من صعاق الديك شهراً
إذا استعجلتها عثرت وبالث
فأما الإعتلاف فأدين منها
وأما القثُ فأتِ بألف وقر
وإن عطشت فأوردها دجياً
وكانت قارحاً أيام كسرى
وقد قرحت ولقمان فطيمٌ
وقد دبّرت ونعمان صبيٌ
وقد مرّت بقرنٍ بعد قرن
فأبدلني بها يارب طرفاً